د. عماد الدين خليل

العقل المسلم
والرؤية الحضارية



لماذا قعد العقل المسلم عن الابداع وانسحب من الاسهام في دفع عجلة الحضارة وقيادتها . . وأصبح كَلاًّ على غيره يتأثر ولا يؤثر . . وينفعل ولا يفعل ؟ .

يجيب على ذلك كله

هذا الكتاب . . ويلقى الاضواء على الرؤية الحضارية الاسلامية في نظرتها الشمولية للانسان والكون والحياة ، والتوازنية بين الجانب المادى والجانب الروحي في الانسان . . المنسجمة مع سنن الكون في التسخير والتبعية والعطاء .

ويدعو إلى تحرير العقل المسلم مما اصابه من لوثات والى اعادة ترتيبه مما لحق به من تشويش . . ويضع المسلم امام مسؤولياته في تحقيق العبودية لله تعالى باقامة الخلافة في الأرض . . بمعناها الكامل .

الناشر



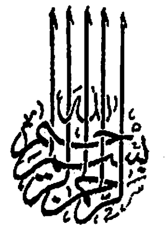
د. عماد الدين خليل



العقل المسلم

والرؤية الحضارية





استعادة دورنا الحضاري

إذا تساءلنا يوماً : هل نطمح إلى استعادة دورنا الحضاري دون أن نتحقق بالشروط الضرورية لإعادة تشكيل العقل الإسلامي المعاصر ، تماماً كما تشكلت عقول أجدادنا الروّاد ؟ فإن الجواب القاطع يكون بالنفي ..

فبدون هذه الشروط التصورية والمعرفية والمنهجية .. لن نقدر على الإمساك بالحركة التاريخية لكي تمنحنا مكاناً تحت الشمس وترد إلينا دورنا المفقود .. وهو دور (حضاري) نعرف جميعاً طبيعة وظائفه وأبعاد تحققه التاريخي ..

ولنا ، في هذا البحث ، أن نرتد إلى الجذور .. إلى نظرية الإسلام نفسها لكي ما يلبث أن يتأكد لنا البعد الحضاري الذي يتغلغل في نسيجها .. في محاولة .. لتصوّر (الهيكل) الذي يقوم عليه .

وتصبح مسألة إعادة تشكيل العقل الإسلامي المعاصر ، ليكون بمستوى الدور الذي يتوخى منه .. ضربة لا زب وقدرا محتوماً .. وإلاّ فإن مكاننا ذيل القافلة .. فلن نعرف أبداً ما يجري في المقدمة .. ولا ما يراد بنا .. ولا إلى أين نسير .. ولن تكون لنا ــ أبداً ــ خارطة على صفحة هذا العــالم .

باختصار يناسب حجم هذه المحاولة .. فإن الهيكل الحضاري للرؤية الإسلامية يمكن أن يتمثل متساوي الأضلاع محكم الزوايا ، أو بمعادلة ذات ثلاثة أطراف ، أو بعمارة مؤلفة من أدوار ثلاثة يقوم أحدها على الآخر ، ويتناظر معه بتطابق هندسي معماري مرسوم : الأرضية ، والإنسان ، وبرنامج العمـل .

وسنجد ، دون تمحل ولا تشنج ولا تعمد مسبق على حساب المنهج ، كيف أن الأطراف الثلاثة هذه تؤول ، من خلال معطياتها الخاصة وطبيعة علاقتها بالطرفين الآخرين ، إلى موقف حضاري سداه العمل والإنجاز ، ولحمته الكشف والابـداع .. ولنبــدأ بالأرضيـة ..

الأرضيــة

تهيئة العالم ابتداءً لاستقبال الإنسان :

لقد أريد للعالم أن يكون صالحــاً لاستقبال الإنسان ، مناسباً لقـدراته الخاصة ، مستجيباً بقــدر لمطامحه وأهدافه ..

لقد هيئت أرضية العالم لكي تحرث .. وتزرع .. ويكون الحصاد .. وبانتظار مجيء العقل الذي سيفكر .. واليد التي ستنفذ .. والإرادة التي ستشد بين رؤية العقل وقدرة اليد .. فإن العالم سيتشكل وفق صيغ ومعادلات تمكن القادم الجديد من أداء دوره الحضاري المرسوم ..

تماماً كما سيتشكل القادم الجديد نفسه ، كما سنرى ، بالصيغ والشروط التي تعينه على تنفيذ المطلوب ..

والقرآن الكريم يحدثنا طويلا عن سائر (العمليات) التي أريد بها تهيئة العالم لاستقبال المخلوق الجديد ، وإحاطة نشاطاته المختلفة بالضمانات .. بل أنه يمضي بنا إلى ما وراء ذلك إلى اليوم الذي قال فيه الله سبحانه للسماوات والأرض : (إئتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتــا أتينا طائعين)(١) .

إن التوجه الحضاري في القرآن يمتد إلى ما قبل آدم .. إنه كل فعل امتزجت فيه إرادة الله وروحه وكلمته بالمادة فصاغتها كتلا كونية ، أو نظماً طبيعية ، أو خلائق تحمل بصمات الحياة الأولى من نبات أو حيوان ..

وما دامت عملية بناء الكون وتهيئة الأرضية الصالحة للحياة على الأرض ، قد سبقت خلق آدم بأزمان لا يعلمها إلا الله ، وما دامت المقاييس الآدمية تجيء دائماً نسبية قاصرة محدودة إزاء خلق الله ، فليس لنا أن نطمع للإحاطة الكاملة والتفسير الشامل لقضية (التكوين) هذه ، وليس لنا ، كذلك ، أن نفترض نظريات لا جدوى من ورائها .. ان هذا فوق طاقتنا، وان أية محاولة في سبيله لا تعدو أن تكون عبثا (ميتافيزيقياً) يذكرنا بما كان يفعل جل الفلاسفة اليونانيين ، والإسلاميين المتأثرين بهم ، والذين أفنوا أعمارهم في هذا السبيل .

---

(١) فصلت ١١

وهذا لا يعني أبداً التشكيك بالمحاولات العلمية – التجريبية لدراسة الجانب الطبيعي القائم (فعلا) من الكون ، والسعي للكشف عن قوانين بنيانه المحكم ، لأن هذا هو الموقف الذي يدعو له القرآن في عشرات الآيات .. إنما القصد هو الجانب الفلسفي التصوري لبدايات الخلق ، والبحث عن (العلة) و (المعلول) و (متناهي الأول) .. إلى آخره .. وكل ما يبينه القرآن عن امتداد عملية الخلق هذه في عصورنا التاريخية الراهنة والمقبلة ، أن الكون ماض في حركته (الداينامية) نحو الاتساع الدائم بإرادة الله (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) (٢) ، وأن هذه الهدفية على المستوى الكوني ، الكلي ، وهذه الحركة صوب الاتساع ، لابد وأن تنكعس في التصور الإسلامي على حركة التاريخ البشري نفسه ، ومصير الإنسان في العالم ، قبل أن يجيء اليوم الذي أعلن القرآن مراراً عنه ، حيث تطوى السماوات كطيّ السجل للكتاب ، وتكف الحياة عن الاستمرار تمهيداً ليوم الحساب ، وتبدأ صفحة جديدة في تاريخ الخلق الالهي الدائم (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) (٣) .

غاية خلق الإنسان :

اننا حيثما تنقلنا في أرجاء القرآن الفسيحة لمطالعة الآيات والمقاطع الخاصة بخلق الكون وتهيئة الظروف الصالحة للحياة على الأرض ، وتمعنّا فيها ، وجدناها ترتبط ارتباطاً عضوياً أصيلا بالدور المنتظر الذي بعث الإنسان لكي يلعبه ، وبالقصد والجدوى والنظام والاعمار والغاية التي بعث من أجلها . وهي كلها قواعد أساسية لأي نشاط حضاري فعال هادف منظم متطور على الأرض :

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون . وله من في السماوات والأرض ، ومن عنده ، لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون) (٤) (وهو الذي خلق السماوات

---

(٢) الذاريات ٤٧ (٣) الأنبياء ١٠٤ (٤) الأنبياء ١٦ – ١٩

والأرض في ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ، ليبلوكم أيكم أحسن عملا)(٥)
(وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا) (٦) . (هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم) (٧) .
(الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى) (٨) .
(هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعلمون بصير) (٩) .
(الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور) (١٠)
(أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟) (١١) .
(قل إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا : أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى إلى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم) (١٢) .

تسخير الكون وخلافة الإنسان :

إن كتلة العالم والطبيعة ، وفق المنظور الإسلامي ، قد سخرت للإنسان تسخيراً وقد حدد الله سبحانه أبعادها وقوانينها وأحجامها ، بما يتلاءم والمهمة

---

(٥) هود ٧ (٧) البقرة ٢٩ (٩) الحديد ٤ (١١) القيامة ٣٦
(٦) الإسراء ١٢ (٨) الرعد ٢ (١٠) الملك ٢ (١٢) فصلت ٩ - ١٢

الأساسية لخلافة الإنسان في العالم ، وقدرته على التعامل العمراني مع الطبيعة تعاملا إيجابياً فاعلا ... ولنتصور كيف سيكون الحال ، على مستوى القدرة على التحضر ، لو كانت الشمس أو القمر ، على سبيل المثال ، أقرب قليلا أو أبعد قليلا عن موقعهما المرسوم .. ولو كانت الجاذبية أخف قليلا أو أثقل قليلا عن شدها المحسوب ، ولو كانت مكونات الغلاف الغازي غير ما هي عليه من دقة معجزة في النسب المحددة .. ولو كانت مياه البحار والمحيطات خالية من الملح ، والأجواء راكدة الرياح ، ومحور الأرض عمودياً ، وشكلها غير بيضوي .. إلى آخره .

الإنسان والتحــدي المنــاسب :

إننا إذا أردنا أن نعتمد مصطلحات المؤرخ الإنكليزي (ارنولد توينبي) ومقاييسه الحضارية فإننا سنرى في العالم (تحدياً مناسباً) للإنسان ، ليس (معجزاً) ولا هو دون الحد المطلوب لإثارة التوتر البشري للردّ . وكأن إرادة الله سبحانه قد شاءت أن تقف به عند هذا الحد لكي يحقق المدى الأقصى من الحوار الخلاق بينه وبين خليفته في الأرض، فلم يشأ أن يمهد العالم تمهيداً كاملا ويكشف للإنسان عن قوانينه وأسراره بالكلية ، لأن هذا نقيض عملية الاستخلاف والتحضر والإبداع التي تتطلب مقاومة وتحدياً واستجابة ودأباً وإبداعاً ، ولانه يقود الإنسان إلى مواقع السلبية المطلقة ويسلمه إلى كسل لاتقرّه مهمة الإنسان على الأرض أساساً . كما أن الله سبحانه لم يشأ ، من جهة أخرى ، أن يجعل العالم على درجة من التعقيد والصعوبة الطبيعية والانغلاق والغموض ، يعجز معها الإنسان عن الاستجابة والإبداع ، الأمر الذي يتنافى أيضاً ومهمته الحضارية التي انيطت به كخليفة لله على الأرض جاء لإعمار عالم غير مقفل ولا مسدود : (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء انه بعباده خبير بصير . وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد . ومن آياته خلق السماوات والأرض ، وما بث فيهما من دابة ، وهو على جمعهم — إذا يشاء . — قدير .

وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) (١٣) .

(الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذي نزل من السماء ماء بقدر فانشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون . والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) (١٤) .

والواقع أن الآيات الخاصة بمسألة التسخير (المتوازن)، المناسب ، هذا ، منبثة في مواضع من القرآن كثيرة لا تعد ولا تحصى .. إنه الحدّ (الوسط) الذي يتحدى الإنسان إلى نقطة التوتر والقدرة على الاستجابة والفعل والاعمار ، ويتجاوز التكشف الكامل أو الانغلاق الكامل اللذين يستحيل معهما الفعل والإبداع .

إن هنالك آيات ومقاطع قرآنية عديدة تحدثنا عن هذا (التسخير) للعالم والطبيعة لخدمة الدور الذي انيط بالإنسان في الأرض ، وهي تمنحنا التصوّر الإيجابي لدور الإنسان الحضاري ينأى كلية عن التصورات السلبية لعديد من المذاهب الوضعية التي جردت الإنسان من كثير من قدراته الفاعلة وحريته في حواره مع كتلة العالم ، وتطرف بعضها فأخضعه إخضاعاً كاملاً لمشيئة هذه الكتلة وإرادة قوانينها (الداينامية) الخاصة التي تجيء بمثابة أمر — لا رادّ له ، وليس بمقدور الإنسان إلا أن يخضع ويساير ويقبل هذا الذي تأمر به .

الإنسان بين التبعية للكون والسيادة عليه :

وسواء التزم المذهب الوضعي المنطلق (الديالكتيكي) على مستوى الفكر الكلي غير المحدد ، كما فعل هيغل ، الفيلسوف الألماني ، و على مستوى المادة وتبدل وسائل الإنتاج وظروفه (الخارجية) كما فعل ماركس وانغلز ، فإن الإنسان يغدو تابعاً وليس متبوعاً وإن الإنجاز الحضاري يجيء وكان الإنسان جزء منه أو مساحة من مكوناته فحسب وانه ليس أمامه إلا أن يتشكل وفق مقتضيات

---

(١٢) الشــورى ٢٧ — ٣٠ (١٣) الزخــرف ١٠ — ١٣

مسيرة أكبر حجماً من إرادته ، وأوسع مدى من قدراته ومطامحه ونزوعاته الذاتية والجماعية على السواء .

إننا نلتقي – من خلال الرؤية الإسلامية – بصيغة أخرى للعلاقة بين الإنسان والعالم تختلف من أساسها .. صيغة السيد الفاعل المريد الذي سخرت وأخضعت له مسبقاً كتلة العالم والطبيعة لتلبية متطلبات خلافته في الأرض واعماره للعالم على عين الله

(و سخر لكم الليـــل والنهـــار والشمس والقمـــر) (١٥) .

(و سخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار. وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليـــل والنهـــار) (١٦) .

(ألم تر أن الله سخر لكم مافي الأرض) (١٧) .

(فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) (١٨) .

(ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ؟ ليقولن الله) (١٩) .

. (ألم تروا أن الله سخر لكم مافي السماوات وما في الأرض ؟) (٢٠) .

---

(١٥) النحـــل ١٢ (١٧) الحـــج ٦٥ (١٩) العنـــكبوت ٦١

(١٦) إبراهـــيم ٣٢ – ٣٣ (١٨) ص ٣٦ (٢٠) لقمـــان – ٢٠

الإنســـــــان

التكريم للإنسان في الرؤية الإسلامية :

الحدّ الآخر للهيكل الحضاري في الرؤية الإسلامية هو (الإنسان) .. والمسألة تبدأ بحادثة خلق آدم عليه السلام باعتبارها حجر الزاوية في الوجود البشري .. في الظروف والدلالات والرموز والارهاصات الّتي رافقته واعقبته (وإذ قال ربك إني جاعل في الأرض خليفة . قالو ا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إني أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ؟ قالو : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم اني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (٢١) .

تلك هي الخطوط العريضة ، الواضحة ، لمسألة الوجود البشري في العالم .. الصورة المتماسكة ، البينة ، الّتي تساقطت عندها قرناً بعد قرن عشرات المحاولات الّتي تطرفت باتجاه الخيال اليهودي (الإسرائيليات) أو التبرير العقلي المتوتر ...

---

(٢١) البقــرة ٣٠ - ٣٩

مبادىء الرؤية الحضارية الإسلامية :

وبقيت الصورة القرآنية الخالدة على وضوحها وبيانها ، اننا من خلال هذا هذا العرض المركز – **نلتقي بقواعد أساسية ومبادىء كلية تتجاوز الجزئيات والتفاصيل وتلقي ضوءها الشامل على كل ما يهمنا في الموضوع : خلافة الإنسان عن الله في الأرض ، ومنحه القدرة على التعلم والفعل والاستيعاب ، وتكريمه الأقصى بسجود الملائكة له .** مجابهته بإبليس وبدء (الصراع) بين الطرفين ، و(الهبوط) الزمني (الموقوت) إلى الأرض كأول تجربة من تجارب هذا الصراع (تعليق) الدور البشري في العالم على تلقي (الهدى) من الله وحده ، وتحديد المصير الذي سيؤول إليه موقف الإنسان (الحرّ) إزاء هذا الهدى في الأرض والسمـــاء .

تلك هي المبادىء الأساسية التي يقدمها لنا هذا المقطع القرآني والتي تعيننا على تفهم الرؤية الحضارية للإسلام بأبعادها الشاملة ، وهي مبادىء تملك من الوضوح والصلابة والاستمرارية والتماسك ما تبدو إزاءه ، غامضة مفككة مضطربة ، كل محاولات التفسير الوضعي لنشأة التاريخ البشري وبدء الخليفة وأصول الحضارات .. لأنها تكل أمر هذه اللحظة الفاصلة للصدفة العمياء ، أو لتطور وسائل الإنتاج المادية في الخارج ، أو لمحاولة (العقل الكلي) ، الغامض غير المحدد ، لأن يعبر عن نفسه من خلال العالم ويقطع الطريق الطويل من أجل التجلي ، أو الرغبة الطبيعية في تنشئة خلائقها وترقيتهم عن طريق منحهم غير المحدد والمبرّر ، لحياة لا تمتلكها هي نفسها ، الأمر الذي يشكل تناقضاً مكشوفاً إزاء تحديد مصدر هذه الحياة ..

لقد أراد الله للإنسان أن يكون خليفته في الأرض ، **فمنحه القدرة الفعلية على التعلم ، والمقدرة الجسدية** على التنفيذ والعمل والإبداع ، **والإرادة (الحرة)** لاختيار أسلوب الحياة التي يقوده إليها فكره ودوافعه النفسية والجسدية .. ولكي لا يحس الإنسان (بالدونية) ولا تدور في خاطره أية فكرة عن (سلبية) دوره في

العالم ، رفعت مكانته إلى أعلى مصاف وطلب من الملائكة أن يسجدوا له .. وتلك هي أسس تقود ولا ريب إلى تصور دور الإنسان في العالم كقوة فاعلة ، مفكرة ، مريدة ، منفذة ، مستقلة ، مفضلة .. الأمور التي لا بد منها لأي إبداع حضاري على الأرض . فإذا ما أضفنا إلى هذا ما سبق وأن أشرنا إليه من أن العالم قد مهد تمهيداً للدور البشري على أرضيته ، وما سنشير إليه بعد قليل من ضرورة (التعاليم) التي كانت تتنزل حينا بعد حين لكي (تضبط) و(تنظم) حركة الإنسان في العالم ، أدركنا كم هي عميقة شاملة متكاملة الأسس التي منحت للبشرية لكي تعتمدها في ممارسة خلافتها العمرانية ، أو الحضارية في العالم .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن مسألة (الاستخلاف) تتكرر أكثر من مرة في القرآن الكريم الأمر الذي يؤكد مدى ثقلها في تصميم الهيكل الحضاري للرؤية الإسلامية : (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ، فمن كفر فعليه كفره ، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا) (٢٢)(قال : عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) (٢٣) (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) (٢٤) (ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله ، ؟ قليلا ما تذكرون) (٢٥) (وعد الله الذين آمنو منكم ، وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) (٢٦) .

---

(٢٢) فاطر ٣٩ (٢٣) الأعراف ١٢٩ (٢٤) يونس ١٤
(٢٥) النحل ٦٢ (٢٦) النور ٥٥

الدين أو برنامج العمل

منهاج شامل :

أما الحدّ الثالث للهيكل الحضاري في الرؤية الإسلامية فيتمثل ببرنامج العمل ، أو (الدين) بعبارة أخرى .. والدين في المنظور الإسلامي هو (منهاج شامل) للحياة يتحرك (الإنسان) على (أرضية العالم) وفق مقولاته وتوجهاته وخططه وأهدافه، ويمارس (استخلافه) الحضاري للطبيعة التي (سخرت) له وفق تعاليمه ومعطياته .. وبدونه يضيع الإنسان ، ويفقد القدرة على أداء وظيفته المرسومة .. أي – بعبارة أخرى – يفقد إمكانية تنفيذ دوره المرسوم في طريق الرقي الصعب الطويل .. وهكذا تلقى آدم منذ لحظة هبوطه الأولى (كلمات) من ربه لتكون بمثابة الهادي والدليل ..

المفهوم الإسلامي للرؤية الحضارية :

إن الدين ، وفق هذه الرؤية ،يبدو برنامجاً حضارياً . .وهو يكمل ويناظر ويناسب طرفيّ المسألة الآخرين : الأرضية والإنسان . وما دامت الحياة الدنيا تعني رقي المنظور الديني عموما– تجربة اختبار وابتلاء ، فمعنى هذا أنها تتطلب منا عملاً دائماً وإبداعاً متواصلا.. ولكن أي عمل وإبداع يتوجبان على الإنسان في الفرصة التي ستنتهي إلى (أجلها المسمى) ؟ .. إنه ليس ارتجالاً كيفياً ، ولا مواقف جزئية مفككة ، كما أنه ليس فوضى لا يحدّها نظام ولا يسلكها هدف .. إنما العمل والإبداع الذين ينبثقان عن تخطيط مرسوم ، وينطلقان من مواقف كلية شاملة ، ويصدران عن نظام مبرمج يهدف إلى غاية دينامية لا حدود لها أبداً تلك هي (عبادة الله) والتوجه إليه والتلقي عنه وحده ..

هدف الحركة الحضارية في الإسلام والمذاهب الوضعية :

إن (عبادة الله) وحده ، بالمفهوم الديني الشامل ، هي الهدف الذي يتوجب على الإنسان ، فردا وجماعة ، أن يصعد إليه كافة أوجه نشاطاته الحضارية .. وبينما ترسم المذاهب الوضعية – هي الأخرى – أهدافاً لحركتها الحضارية ، تتميز حينا بالغموض والمثالية كما هو الحال عند هيغل، وتتميز حيناً آخر بالتحديدات المادية الصارمة كما هو الحال عند ماركس وانغلز .. الأمر الذي قاد الأول – وهو يتحدث عن تجلي المتوحد من خلال (الدولة) – إلى أن يعطيها كافة المبررات الفلسفية لممارسة سياستها العدوانية التي تقود ولا ريب إلى الدمار الحضاري والظلم البشري ، وقاد الآخرين إلى إعلان مبدأ دكتاتورية الطبقة العاملة وتبرير أي أسلوب تعتمده لتحقيق هدفها مادامت لا تعدو أن تكون منفذة أمينة لمنطق التبدل في وسائل الإنتاج الأمر الذي قادها إلى تنفيذ المجازر الجماعية تجاه كافة القوى المعارضة والتي لا تنسجم وبداهات التحضر البشري الحرّ ..

ثم ماذا بعد هذه الأهداف التي تؤكد المذاهب الوضعية أنها آتية لا ريب فيها ؟ وهي في تأكيدها هذا تقع في التناقض الصريح مع (الداينامية) التي أقرتها كأساس لحركة التاريخ البشري ونمو الحضارات ؟ ماذا بعد تجلي المتوحد ودكتاتورية الطبقة العاملة ؟.

إن التجربة البشرية أوسع دائماً وأغنى وأشمل ، من أن تحصرها حدود طبقية تقوم على فرض التشابه الجماعي بالقسر ، ومجابهة كل تفرد أو تميز إنساني ، ولا يعدو مصيرها في نهاية الأمر أن يكون إنشاء مجتمعات لا تزيد في أنشطتها ومعطياتها عما نشهده في عوالم النحل والنمل من نظم هندسية صارمة دقيقة ، وعمل دائب وإنتاج متزايد .. أو أن تحصر هذه التجربة البشرية الواسعة الغنية المعقدة المتنوعة الشاملة ، دولة عالمية يتجلى فيها المتوحد الهيغلي ويسوسها عرق ممتاز ، مبررة سلفاً كل ممارساته العدوانية ونزعاته الشوفينية .

بينما ترسم المذاهب الوضعية ، أهدافاً كهذه تتميز بالغموض أو الطغيان أو التناقض أو الانغلاق ، **نجد الموقف الإسلامي يعلن هدفه الواضح المتوحد المفتوح الذي يستقطب حوله كافة الفاعليات والمعطيات : عبادة الله، والتوجه إليه ، والتلقي عنه** .. ويطلب من القوى المؤمنة أن تتحرك على مدار التاريخ ، وفق كل الأساليب الإنسانية الشريفة الممكنة ، لتجميع البشرية حول هذا الهدف الكبير (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله) (٢٧) .

التوافق بين حركة الإنسان ونواميس الكون :

ولكي تتوحد في ممارساتها ومعطياتها وعلاقتها جميعاً مع النواميس الكونية الشاملة والنظام الالهي الملزم في مداه البعيد ، والذي ما منح هذا القدر من الحرية للإنسان ، إلا لكي يعتمدها باختياره في التساوق مع هذا النظام والاندماج في المجرى العام لخلائق الله جميعاً ، تمييزاً له — بهذه الحرية التي تنبثق عن دوره كخليفة ، ومكانته كسيد للعالمين — عن سائر خلق الله .

وثمة فرق شاسع ، على كل المستويات الذاتية والاجتماعية والحضارية ، في النتائج المتمخضة عن نشاط يبذله الإنسان وهو متساوق مع نواميس الكون ، متناغم مع مسيره ومصيره ، أو وهو منشق على هذه النواميس ، متنافر معها بدءاً ومصيرا ..

والواقع أن الإنسان — فردا وجماعة — ينسى في معظم الأحيان أن دائرة حريته محدودة فيما يقدمه من أفعال ، وما يتخذه من مواقف ويلتزمه من أهداف ، وأنه فيما وراء ذلك محكوم بسنن ونواميس الهية تفوق طاقاته وقدراته جميعاً ، وبدونها لا يمضي حق وعدل ، ولا يستقيم نظام كوني ولا وجود بشري ، ولا تتحقق حكمة الله سبحانه من تسيير الكون والخلائق جميعاً وفق طرائق محددة

---

(٢٧) البقــرة ١٩٨

منضبطة ، تؤول بهم جميعاً إلى الأهداف التي رسمها علم الله المطلق ، ودفعتهم إليها إرادته التي لا رادّ لها .. والآيات التالية تعرض علينا المسألة في أبعادها المتكاملة ومن زواياها المختلفة :

- (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما الاّ بالحق) (٢٨).
- (ولله يسجد من فيالسماوات والأرض طوعاً وكرها ..) (٢٩) .
- (ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة ، والملائكة ، وهم لايستكبرون) (٣٠).
- (وله مافي السماوات والأرض ، وله الدين واصباً ، أفغير الله تتقون ؟)(٣١)
- (تسبح له السماوات والأرض ، ومن فيهن ، وإن من شيىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا) (٣٢) .
- (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النـــار) (٣٣) .
- (أو لم يتفكروا في أنفسهم ، ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ، وان كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون) (٣٤) .
- (إن الله خالق كل شيىء ، وهو على كل شيىء وكيل ، له مقاليد السماوات والأرض ، والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون) (٣٥) .
- (بل جاءهم بالحق ، وأكثرهم للحق كارهون . ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن ، بل اتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) (٣٦) .

---

(٢٨) الحجــر ٨٥ — (٣٠) النحــل ٤٩ — (٣٢) الإســراء ٤٤
(٢٩) الرعــد ١٥ — (٣١) النحــل ٥٢ . — (٣٣) ص ٢٧
(٣٤) الــروم ٨ — (٣٥) الزمر ٦٢ — ٦٣ — (٣٦) المؤمنــون ٧١

- (وله من في السماوات والأرض كل له قانتون) (٣٧) .
- (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) (٣٨) .

الإنسان محكوم بالنواميس ومجبر عليهـــا :

ولو تمعنا قليلا في موقفنا عبر الكون لرأينا أننا مجبرون – بالحق والعدل والنواميس ، وباعتبارنا جزءاً من خليقة الله ، شئنا أم أبينا - في مساحات واسعة حاسمة من وجودنا : اننا مجبرون على أن نولد ومجبرون على أن نموت .. اننا مجبرون على أن نبعث وأن نحاسب على أعمالنا ، وأن نساق إلى جنة أو إلى نار وفق هذا الحساب العادل المحفز .. اننا مجبرون على أن ننتمي إلى هذا الإقليم أو ذاك ، وإلى هذه القبيلة أو تلك الأمة ، وإلى هذا الجنس أو ذاك وإلى هذا اللون أو ذاك .. مجبرون كذلك على أن نخضع لمتطلبات حياتنا البيولوجية والحسية ، وعلى أن نتقلب في تجاربنا النفسية بين الحزن والفرح والغم والانشراح ، والخوف والطمأنينة ، والتمزق والتوحد .. وفوق هذا وذاك فإننا مجبرون على حمل ملامحنا الشخصية المتفردة وسماتنا الخاصة وبصمات أصابعنا .. وبدون هذه الالتزامات الحتمية تتبدد الحياة وتفقد وحدتها وتماسكها ومعناها .. بدون هذا (الجبر) تضيع البشرية ، ويحدث التناقض في النواميس وتختفي قيم الحق والعدل الأزلية ..

مساحة حرية الإنســـان:

والمساحة المتبقية لممارسة حريتنا إنما منحت لنا لتمييزنا عن سائر خلق الله ، وتفضيلنا على العالمين .. إن هذه المساحة تمتد هي الأخرى إلى أمداء واسعة : الموقف الذي نتخذه من العالم .. الأعمال والأهداف والمعطيات التي نقدمها في الحياة .. هذه الحرية التي تقف بالإنسان والأمم والشعوب والحضارات على مفترق طريقين :

---

(٣٧) الـروم ٢٦ (٣٨) الدخـان ٣٨ــ ٣٩

فاما أن تكون مواقفنا وأعمالنا وأهدافنا منسجمة مع نواميس الكون وسنن الحياة ، متوافقة معها ، مما يترتب عليها إنجاز حضاري أغنى ، وتوحد بشري أشمل ، وسعادة أكثر عمقاً ، ومصير في الأرض والسماء أشد توافقاً مع مهمة الوجود البشري في الأرض .. وهذا ما سعت الأديان لتحقيقه في العالم ، وما يسعى الإسلام . وسيظل ، من أجل تحويل البشرية كلها إليه (حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله ..) (٣٩) .

التصادم مع نواميس الكون :

وإما أن تجيء هذه المواقف والأعمال والأهداف منشقة ، بالقدر الذي منحت فيه اختيارها بطبيعة الحال ، عن نواميس الكون وسنن الحياة ، مرتطمة بها ، الأمر الذي يترتب عليه انجاز حضاري متفكك ، وتمزق بشري شامل ، وشقاء عميق ، ومصير سيء في الدنيا والآخرة ، يند عن طبيعة الدور الذي يبعث الإنسان في العالم لأدائه ، ويجيء مكافئاً لعصيانه وتمرده ورفضه أداء المهمة .. وهذا ما سعت المذاهب الوضعية ، وتسعى ، لتحقيقه في العالم وتحويل البشرية كلها إليـــه ..

ومن ثم فإن الإسلام في تحليله لأدوار الأمم والشعوب والحضارات إنما يتخذ هذا المقياس الكوني المصيري الحاسم في تحديد مدى توافق التجربة البشرية مع النواميس أو ارتطامها ، ويدعونا إلى مواقع الانسجام والتوافق ، نافخاً فينا روح العمل والإبداع مستقطباً ممارساتنا ومعطياتنا في الهدف الواحد الشامل الذي أعلنه الله سبحانه (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (٤٠) .

(٣٩) الانفال ٣٩ (٤٠) الذاريات ٥٦

مفهوم العباده الشامل وآثاره الإيجابية على حضارة الإنسان :

وليس مفهوم العبادة هنا مساحة ضيقة لا تتجاوز دائرة الشعائرية ، و(الاتصال الروحي) بالله .. إنه تجربة حياة كاملة يتوازن فيها الأخذ والعطاء ، وتغدو أشبه بالبرنامج الشامل الذي ينظم فاعليات الجماعة البشرية في الأرض ، ويمنحها معنى ، ويسير بها إلى هدف واضح مرسوم .. إنه يمنح التجربة الحضارية طابعها الخاص ، ويعطيها الدافع والمبرر ، وينفخ فيها روح الإبداع ، والابتكار والتطور الدائم الفعال .. كما أنه يتجاوز بها السفوح الدنيا للنشاط البشري إلى القمم التي تليق بمكانة الإنسان في العالم .. وبهذا تسقط – ابتداء – كافة السلبيات التي يمكن أن تعلق بأي نشاط حضاري لا يعتمد برنامجاً شاملاً ، أو لا يسعى إلى هدف واضح ، ولا يلتزم أخلاقية الإنسان في حواره مع خالقه (٤١) .

---

(٤١) للاطلاع على المزيد من التفاصيل حول الموقف الاسلامي من (الحضارة) انظر الفصلين الثالث والرابع من كتاب (التفسير الاسلامي للتاريخ) للمؤلف والذين اعتمدت بعض معطياتهما في هذا المقطع والذي يليه مع الاضافة وإعادة الصياغة التي تقتضيها طبيعة السياق .

الملامح الأساسية للحضارة الإسلامية

إن المقطع السابق يقودنا إلى مسألة أخرى ترتبط أشد الارتباط بالهيكل الحضاري الذي يطرحه الإسلام ، لأنها تتعلق بطبيعة معطيات هذا الهيكل ، تلك هي الملامح الأساسية التي تميز هذه المعطيات وتمنحها شخصيتها المتفردة بما أنها حصيلة لقاء ذي توجه إيماني بين العالم والإنسان والدين .. ولن يتسع المجال لاستعراض الملامح كافة ، ونكتفي بأكثرها أهمية وثقلا ، متجاوزين التفاصيل والجزئيات ..

(١) روح العمل والإبداع :

نقرأ في كتاب الله الدعوة الشاملة للعمل (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) (١) ونستمع إلى الرسول المعلم عليه السلام وهو ينادينا (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع أن يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر) .. فنعرف جيداً كيف أن الدور الحضاري للإنسان المسلم يقوم على العمل والإبداع المتواصلين منذ لحظة الوعي الأولى وحتى ساعة الحساب ! ! ونعلم تماماً كيف أن الحياة الإسلامية إنما هي فعل إبداعي مستمر ! ! .

ويبلغ من تأكيد القرآن على العمل والجهد البشري لاعمار العالم ، على عين الله وتوجيهه ، أن ترد اللفظة بتصريفاتها المختلفة فيما يزيد على الثلاثمائة والخمسين موضعاً ، وهي كلها تشير – سلباً وإيجابا – إلى أن المحور الأساسي لوجود الإنسان – فردا وجماعة – على الأرض هو العمل الذي يتخذ مقياسا عادلاً لتحديد المصير في الدنيا والآخرة ، وهو (موقف) ينسجم تماماً مع فكرتي (الأستخلاف والاستعمار) الأرضي .. إن القرآن الكريم يحدثنا أن مسألة خلق

---

(١) التوبة ١٠٥ – ١٠٦

الموت والحياة أساساً إنما جاءت لابتلاء بني آدم ، أيهم أحسن عملا (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور).(٢) . كما يحدثنا في سورة العصر أن موقف الإنسان في العالم سيؤول إلى الخسران بمجرد افتقاد شرطيه الأساسيين : (الإيمان والعمل الصالح) .. ويصدر أمره الحاسم إلى الأمة المسلمة أن تلتزم دورها الإيجابي الفعال في قلب العالم (ولتكن منكم أمة يدعون إلى إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاء هم البينات وأولئك لهم عذب عظيم) (٣) وفي مكان آخر يصف هذه الأمة بأنها (خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (٣)

الإيمان بمثابة معامل حضاري :

إن (الإيمان) الذي يقوم عليه بنيان الدين يجيء دائماً بمثابة (معامل حضاري) يمتد أفقياً لكي يصب إرادة الجماعة المؤمنة على معطيات الزمن والتراب ، ويوجهها في مسالكها الصحيحة ، ويجعلها تنسجم في علاقاتها وارتباطاتها مع حركة الكون والطبيعة ونواميسها ، فيزيدها عطاءً وقوة وإيجابية وتناسقاً .. كما يمتد عمودياً في أعماق الإنسان لكي يبعث فيه الإحساس الدائم بالمسؤولية ، ويقظة الضمير ، ويدفعه إلى سباق زمني لامثيل له لاستغلال الفرصة التي أتيحت له كي يفجرّ طاقاته ويعبر عن قدراته التي منحه الله إياها على طريق (القيم) التي يؤمن بها و(الأهداف) التي يسعى لبلوغها فيما يعتبر جميعاً — في نظر الإسلام — عبادة شاملة يتقرّب بها الإنسان إلى الله وتجيء مصداقاً للآية (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبـــدون) (٤) .

ويتحدث القرآن الكريم عن هذا (السباق) الحضاري عندما يصف المؤمنين بأنهم (يسارعون في الخيرات) وأنهم (لها سابقون) ، وفي كلا التعبيرين نلمس

---

(٢) الملك ٢ (٣) آل عمران ١١ (٤) الذاريـــات ٥٦

بوضوح فكرة (الزمن) ومحاولة اعتماده لتحقيق أكبر قدر ممكن من المعطيات ، ما تلبث أن ترتقي – بمقاييس الكم والنوع – بمجرد أن يتجاوز (المسلم) مرحلة (الإيمان) إلى المراحل الأعلى التي يحدثنا عنها القرآن في أماكن عديدة : (التقوى) و (الإحسان) ..

وهكذا تجيء (التجربة الإيمانية) لا لكي تمنح الحضارة وحدتها وتفردها وشخصيتها وتماسكها ، وتحميها من التفكك والتبعثر والانهيار فحسب ، بل لكي ترفدها بهذين البعدين الأساسيين اللذين يؤول أولهما إلى تحقيق انسجامها مع نواميس الكون والطبيعة : (أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من في السماوات والأرض ، طوعاً وكرها ، وإليه يرجعون؟) (٥) .. (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين) . (٦) ويعطيها ثانيهما قدرات إبداعية أكثر وأعمق ، تتفجر على أيدي اناس يشعرون بمسؤوليتهم ، ويعانون يقظة ضمائرهم ، ويسابقون الزمن في عطائهم ، لأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر و(لايريدون علوّا في الأرض ولا فسادا) (٧) .

(٢)مجابهة التخريب والإفساد :

وفي مقابل هذا يندد القرآن بكل عمل أو نشاط خاطىء من شأنه أن يؤول إلى الفساد في الأرض ، وإلى هدم وتدمير المكتسبات التي يصنعها العمل الصالح بالصبر والدأب والمثابرة ، وهو من موقفه هذا يسعى إلى حماية منجزات الإنسان الحضارية ووقف كل ما من شأنه أن يعوق مسيرتها ونموها ، وملاحقة أية محاولة لانزال الدمار بها من الداخل تحت أي شعار كانت .

وهذه الحماية الحضارية لا تنصب على الجوانب المادية(المدنية)من الإنجاز البشري فقط ، بل تتجه إلى ما هو أكثر أهمية ، وما يعد أساساً للإنجاز المادي

---

(٥) آل عمـــران ٨٣ (٦) آل عمـــران ٨٥ (٧) القصص ٨٣

نفسه تلك هي المعطيات الفكرية والأخلاقية والروحية (والثقافية) بمفهومها الشامل من أجل الصمود في المواقع التي بلغها الإنسان وهو يواصل طريقه لاعمار العالم ، عبر سلسلة طويلة من كفاح مبعوثي الله إلى بني آدم .

إن الإصلاح والإعمار المنوطين بالاستخلاف مسائل تتداخل فيها كل الفاعليات الحضارية مادية وأخلاقية وروحية ، وإن أي ضرر أو إفساد يلحق بأحدها ينعكس – بشكل أو بآخر – على الجوانب الأخرى، وهذا واضح بين في أكثر من آية :

(أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ؟ والله لايهدي القوم الظالمين .. لايزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) (٨) .

(ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ...) (٩) .

(.. واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) (١٠) .

(ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) (١١) .

(والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) (١٢) .

(ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون .) (١٣) .

(وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقي إلا بالله) (١٤) .

(وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفرا ، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، كلما أوقدوا ناراً للحرب اطفأها الله ، ويسعون في الأرض فساداً والله لايحب المفسدين) (١٥) .

---

(٨) التوبة ١٠٩ – ١١٠
(٩) الأعراف ٥٦
(١٠) الأعراف ١٨٢
(١١) الروم ٤١
(١٢) الرعد ٢٥
(١٣) الشعراء ١٥١ – ١٥٢
(١٤) هود ٨٨
(١٥) المائدة ٦٤

(الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون (١٦)

والقرآن الكريم لا يكتفي بتقديم هذه الأمور ذات الطابع السلبي عن الإفساد الروحي والمادي وعما يؤول إليه من دمار لحضارة الإنسان، ولرقيه وسعادته وتقدمه، ومن عرقلة لدوره في العالم كخليفة عن الله، **ولكنه يطلب من الجماعة المؤمنة أن (تتحرك) لوقفه بأسرع ماتستطيع وبأقصى ما تطيق،** لئلا يتحول (الفساد) إلى فتنة عمياء لاترحم أحدا ولا تبقي، وهي تدوّم فوق رؤوس الجماعة كلها، ظالماً أو مظلوما: (واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب) (١٧).

(فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض، إلا قليلا ممن أنجينا منهم، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين. وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) (١٨).

إن الرؤية الإسلامية ترفض، في موقفها من الحضارة، أشد ما ترفض، صيغ التجزئة والفصل وإقامة الجدران بين مساحات التجربة البشرية، وترى فيها وحدة حيوية تسري فيها روح واحدة وتغذيها دماء واحدة، وأن تجزئتها وعزل بعض جوانبها، خلال العمل، عن بعضها، ليس خطأ فحسب، لكنه مسألة تكاد تكون مستحيلة، إذا أردنا – مسبقاً – أن نصل إلى نتائج صحيحة ..

(٣) التوازن بين الثنائيات وتوحدها:

سنطيل الوقوف، بعض الشيء، عند هذه المسألة لأنها تكاد تمثل أكثر الملامح الأساسية أهمية في التصوّر الإسلامي للحضارة.

لقد جاء الإسلام لكي يؤكد موقفه من العمل الحضاري من خلال رؤية متوازنة تضم جناحيها على كل ما هو روحي أخلاقي ومادي جسدي في الوقت نفسه. ونجد أنفسنا ونحن نطالع كتاب الله أو نقرأ سنة رسوله عليه السلام بإزاء

(١٦) هود ١٩ (١٧) الأنفال ٢٥ (١٨) هود ١١٦ – ١١٧

تأكيدات عديدة ، آيات واحاديث ، تضع الجماعة البشرية المؤمنة في قلب العالم والطبيعة ، وتدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس في أعماق التربة وفي صميم العلاقات المادية بين الجزئيات والذرات .. إننا بإزاء حركة حضارية شاملة تربط ، وهي تطلب من الإنسان أن ينظر في السماوات والأرض ، بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع ، بين التلقي عن الله والتوغل قدما في مسالك الطبيعة ومنحنياتها وأغاميضها ، بين تحقيق مستوى روحي عال للإنسان على الأرض وبين تسخير قوانين الكيمياء والفيزياء والرياضيات لتحقيق نفس الدرجة من التقدم والعلوّ الحضاري على المستوى المادي (المدني) .
ولم يفصل الإسلام بين هذا وذاك ، انه – كما أكدنا – يقف دائماً موقفاً شمولياً مترابطاً ويرفض التقطيع والتجزيء في تقييم الموقف (الحيوي) أو الدعوة إليه ..
ولقد انعكس هذا (التوحدّ) بين قيم الروح والمادة بوضوح كامل عبر مسيرة الحضارة الإسلامية التي قطعت – كما رأينا – القرون الطويلة وهي تحتفظ بتوازنها المبدع بين الطرفين ، وانجزت وابتكرت وكشفت ونفذت الكثير الكثير من المعطيات الحضارية التي لم تهمل جانباً من الجوانب المرتبطة جميعاً ، ارتباطاً وثيقاً ، بخلافة الإنسان على الأرض ودوره الحضاري في العالم ...
وما كان لها إلاّ أن تكون كذلك وهي تعمل في ظلال مناخ حضاري متوازن نتلمسه بو ضوح من خلال آيات عديدة هذه بعض نماذجها :

(أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ؟)(١٩)

(فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنباً وقضبا . وزيتوناً ونخلا . وحد ائق غلبا . وفاكهة وأبا)(٢٠)

(فلينظر الإنسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب) (٢١) .

---

(١٩) الأعراف ١٨٥ (٢٠) عبس ٢٤ – ٣١ (٢١) الطارق ٥ – ٧

(أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد) (٢٢) .

(انظروا إلى ثمره – إذا اثمر – وينعه !) (٢٣) .

(فانظروا إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ؟) (٢٤).

(وانظروا إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما) (٢٥) .

(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت ؟ (٢٦) .

(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) (٢٧) ..

إن القرآن – من خلال هذه الآيات ، وغيرها كثير – يريد أن يضعنا في قلب الطبيعة ، على مستوى الكون والعالم ، وأن يختار لنا موقعاً (تجريبياً) يعتمد النظر والتمعن والفحص والاختبار من أجل الكشف والابتكار والابداع ، ومن أجل ألا نفقد توازننا الحضاري فنجنح باتجاه الروح أو الأخلاق ونهمل التكييف والتطوير الماديين الملازمين لأية حضارة متوازنة تريد أن تتحقق بالشرط الأساسي للوجود الإنساني على الأرض وهو عبادة الله ، والتوجه إليه ومحاورته أخذاً وعطاءا .

الموقف السلبي من المادة مرفوض في الرؤية الإسلامية :

إن هنالك بداهة من أشد بداهات الإيمان أهمية ، تلك هي أن الله سبحانه مادام قد (عبّر) عن إبداعه وقدرته الكلية على مستوى الروح والمادة ، الإنسان

---

(٢٢) ق ٦ – ١٠ (٢٤) الروم ٥٠ (٢٦) الغاشية ١٧ – ٢٠
(٢٣) الأنعام ٩٩ (٢٥) البقرة ٢٥٩ (٢٧) العنكبوت ٢٠

والطبيعة ، فليس ثمة معنى أبدا لأي موقف بشري من المادة أو الطبيعة يتميز بالهروب أو الاحتقار أو السلبية أو الاستعلاء ، إن هذا (الموقف) مهما كانت درجته ، غير مبرر في بداهات الإيمان ، ولافي مقتضيات (الاستخلاف) ، ليس هذا فحسب ، بل إنه يقف نقيضاً لهذه البداهات والمقتضيات ، ومن ثم فهو مرفوض في الرؤية الإسلامية ابتداء ..

القرآن الكريم يدعو إلى حضارة مزدهرة على جميع المستويات المادية والروحية :

إن كتاب الله يوجه أنظارنا ، في الآيات السالفة ، إلى أشد الأمور مادية وثقلا : الطعام ، النطفة الأولى ، الأرض والسماء والجبال ، وإلى دنيا النبات والحيوان .. ويدعونا لأن نسير بحثاً عن سنن هذه العوالم ، وإدراكاً لأبعاد خلقها المعجزة التي لاتتحقق إلا بإرادة كلية نافذة لايعجزها شيء .. إن القرآن يدعو إلى حضارة تنمو وتزدهر على كل المستويات الروحية والأخلاقية والطبيعية ، وهو يخصص المقاطع والآيات الطوال للإبداع الحضاري في مستواه الطبيعي ، المادي ، ولكن شرط أن تضبطه القيم والمعايير الدينية الآتية من عند الله .

إن كل آية أو مقطع قرآني يتناول مسألة طبيعية أو حيوية أو مادية ينتهي بأفعال التقوى والإيمان وبالدعوة إلى ربط أية فاعلية بالله .. وهذا التأكيد المتكرر له مغزاه الواضح .. إن منطق (التوازن الحركي) الذي يرفض الانحراف أو السكون هو القاعدة التي نتلمسها في القرآن الكريم بوضوح من خلال عدد كبير من آياته البينات والتي تكفل نموا سليماً لأية حضارة تستطيع أن تحافظ على نقطة التوازن بين تجربتي الروح والمادة ، ولا تنحرف باتجاه إحداهما ، مهملة الأخرى ، أو ضاغطة عليها ، مستخدمة إزاءها أساليب القمع والكبت والتحديد .. التوازن الذي يمكن الحضارة من الحركة الدائمة ، لأن الأهداف التي يضعها أمامها تأخذ مستويات صاعدة لا يحدّها أفق ولا يقف في طريقها تحديد صارم .. إنها تبدأ بتأمين متطلبات الحياة اليومية المباشرة وتتقدم– بعد هذا–صوب أعمال الفكر

في قلب العالم للكشف عن نواميسه ، أو في امداء الكون لإدراك سرّه المعجز .. هذه الفاعلية التي مالها من حدود تقف عندها .. ومن ثم توالي خطواتها لتنفيذ أكبر قدر من ضمانات التجربة الروحية الشاملة ، وإيصالها إلى مطامحها التي تتجاوز الأرض إلى السماء ، وتغادر اللحظة الموقوتة العابرة إلى عالم الخلود .

القرآن الكريم يقيم حالة توازن وسمو في الشخصية الإنسانية :

إن القرآن الكريم يبين لنا – أكثر من مرة – أن علاقة الإنسان بالحاجات المادية ، الجسدية علاقة صميمة ، وأن حبه لإشباعها مركوز في جبلته التي يشكلها الجسد تماما كما تحركها الروح والإرادة والقدرات العقلية (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسوّمة والأنعام والحرث) (٢٨) .. **إلا أن الخطوة الحاسمة التي يخطوها الإسلام متميزاً بها عن سائر المذاهب والنظريات ، أنه يضع أهدافاً أعلى ،** وقيماً أوسع وأكثر شمولاً من مجرد تضييق نطاق الحياة البشرية في البحث عن إشباع الحاجات الجسدية ، على ثقلها ، لأن تركيز الهدف النهائي للإنسان في الإشباع وحده يشده إلى الأرض ويلصقه بترابها ويبعده عن مواقع الاستشراف الإيماني الشاملة الرحبة (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) (٢٩) .

ولأن توسيع نطاق المناشط والأهداف البشرية وتنويعها وربطها بآفاق أرقى وأشرف وأكثر سموا يعطي الحياة قيمتها الحقيقية ويمكن الإنسان من تأدية مهمة الاستخلاف الأرضي بحالة من التوازن الفذ الذي يحميها من الالتصاق الساكن بالأرض ويمنعها كذلك من التهويم السلبي في سماوات الروح (ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب قل : أأنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) (٣٠) .

---

(٢٨) آل عمران ١٤ (٢٩) محمد ١٢ (٣٠) آل عمران ١٤ – ١٧

إننا نستطيع أن نتلمس بوضوح موقف القرآن الكريم إزاء الجانب المادي – الجسدي عموما ، من خلال حشد كبير من سوره وآياته ومقاطعه .. إن أي حديث عن الكون والطبيعة والعالم ، وتسخير السماوات والأرض ، ومسائل الرزق والكسب والسعي ، وأمور الغرائز والدوافع الجسدية والدعوات المستمرة للتنقيب عن أسرار الطبيعة لصالح الموقف البشري على الأرض ولأداء مهمته كخليفة جاء لاعمار العالم ، ونداءات التسلح واعتماد القوة المادية – إلى جانب القوى الروحية – لصد العدوان . أو لتنفيذ متطلبات حركة الجهاد الدائمة ، وتنظيمات الحياة اليومية المتشعبة ، وغيره كثير ، تأكيد واضح تماماً للاهمية التي يوليها القرآن الكريم للجانب المادي ، إلا أنه يضع دائماً في صميم هذه العلاقات والممارسات ، ولانقول بمواجهتها ، إذ أن الرؤية الإسلامية ترفض الثنائية والازدواج ، يضع قضايا الروح والقيم والأهداف البشرية العليا التي تحفظ توازن الموقف البشري في الأرض وتمكنه من أداء مهمة الاستخلاف التي أنيطت به ..

وفي مقابل (حالة التوازن) هذه التي يؤكدها الإسلام ويدعو المؤمنين إلى التشبث بها ، والتحرك وفق مقاييسها الموضوعية العادلة .. تبدو أية تجربة بشرية تجنح باتجاه المادية ، مهملة الروح ، أو تتشبث بالروحية مهملة المتطلبات المادية ، شذوذا وانحرافاً لأنها تزوير وتزييف للموقف البشري في العالم ، وقسر لتجربة الإنسان الفردية والجماعية ، على التشكل فيما يأباه تكوينها الأساسي القائم على التداخل والتكامل والتوازن بين قيم الروح وقيم المادة على السواء . ولن تكون نتيجة هذا الانحراف الذي يأخذ في الحالة الأولى اتجاهاً ماديا صرفاً أو علمانياً يفصل بين شئون الدين والدنيا ويأخذ في الحالة الثانية اتجاهاً رهبانياً هروبياً يرفض الدخول في قلب العالم لتغييره بما ينسجم ومهمة الإنسان في الأرض .. لن تكون نتيجة هذا الانحراف إلا تمزيق الذات الإنسانية على المستوى الفردي والنفسي ، الأمر الذي ينعكس على طبيعة النشاط الاجتماعي فيصيبه هو الآخر بالتمزق والتشتت والازدواج وفقدان الهدف ، وانتشار الاحساس المدمر بالعبثية ، وباللا جدوى ، وسيادة

نزعة التشاؤم والانشقاق .. وهي مسائل تبلغ – بتصاعدها الدوري المستمر – درجة من الحدّة تجعل الفعل الحضاري عاجزا عن الإبداع والإنجاز وتقوده إلى التدهور والانهيار والسقوط .

(٤) التناغم والوفاق مع الطبيعة والعالم والكون :

والمبدأ السابق ينقلنا إلى ملمح آخر لايقل أهمية . إن الإسلام في تصوره للعلاقة بين الإنسان والعالم يرسم خطا جديدا .. خطا يقوم على الوئام والانسجام والتكامل والوفاق والتجانس والالتحام بين الإنسان والطبيعة ، بين الجماعة المؤمنة والعالم .. فما دامت قوى الطبيعة وطاقاتها قد سخرت أساساً لخدمة الإنسان ومساعدته على الرقيّ الحضاري وإعمار العالم فإن العلاقة بينهما ليست – بالضرورة علاقة قتال وصراع وغزو وبغضاء .. إنما علاقة انسجام وتقابل وتواصل وتعاون وتكامل وكشف وتنقيب .. إنها علاقة الخادم المطيع بالسيد القدير .. إنه في هذه الحالة لا يصطرع مع خادمه ، أو يستفزه أو يرفع السلاح بوجهه .. إنما (يستخدمه) بحصافة وذكاء لتأدية واجباته جميعاً في أجواء تسودها علائق الطاعة والمحبة والإبداع .

إن الصراع بين الإنسان والعالم نظرة غربية صرفة ، وهي مهما وضعت في اطرفلسفات شاملة تبدو للوهلة الأولى منطقية ومبررة ، فاننا بمجرد التوغل في دقائقها ومنحنياتها ، سنعثر على منطق الصراع الذي تبنى عليه معطياتها .. صراعاً يضعه (هيغل) في عالم الفكر ويبرر به أية جريمة شوفينية يمارسها شعب أوربي متفوق لاستعباد وقتل الشعوب المستضعفة ، ويضعه (ماركس) في ميدان التبدلات المادية ليبرر به أية مذبحة تمارسها طبقة ضد طبقة .. أكثر من هذا إنه يجرد الإنسان ، في قلب هذا الصراع والتغير المادي ، من حريته وإرادته ، ويجعله تابعاً مطيعاً لمنطق الصراع المادي هذا ، يأتمر بأمره ويتشكل بقواعده حتى في أشد ممارساته بعدا عن المادية : الدين والفن والعواطف والأخلاق والمطامح والرؤى ..

إن التصور الإسلامي ، على العكس من هذا كله ، يمنحنا معادلة حيوية ومنطقية لاخلل فيها ولا اضطراب .. إننا ما دمنا قد خلقنا وفق هذه الصيغة التي تشتبك فيها قوى الروح والمادة ، فإن لنا أن ننطلق في نشاطاتنا وممارساتنا من نقطة التوازن التي لاتجنح ولا تنحرف ولا تميل .. التوازن الذي ينتفي فيه الصراع ، ويتحول الجهد الإنساني الدائم إلى سعي خلاق من أجل التوحد والتكامل والانسجام وإنه مادامت قوى العالم – من جهة أخرى – قد سخرت لمهمتنا الأرضية تسخيراً ، فإن علاقتنا بها ليست أبداً علاقة صراع وتناقض واقتتال .. إنما هي محاولة الكشف ، والتنقيب والاندماج للوصول إلى أكبر قدر ممكن من التفاهم بين الإنسان وبين العالم ، بعد الكشف عن سننه ونواميسه الطبيعية .

إن اكتشاف الفضاء في المنظور الإسلامي ليس (غزوا) كما يراه الغربيون ، ولكنه فهم وتوغل ووفاق .. إن القمر ليس خصماً يغزى ولكنه خادم مطيع ينادى فيلبى النداء !! .

(٥) النزعة التحريرية :

لقد كان الإسلام ، منذ اللحظة الأولى ، عملاً تحريرياً .. وعلى كافة المستويات..وقد رأينا ، ونحن نتحدث عن النقلة التصويرية – الاعتقادية التي نفذها هذا الدين ، كيف أنه حرر الإنسان من الضلالات والأوهام والطواغيت والأرباب ..وفي نقلته الأخرى.. النقلة المعرفيه .. مارس تحريره من الخوف والجهل والأمية .. وكانت نقلته المنهجية باتجاه تحرير الإنسان المسلم من الخضوع للفوضى والانحناء للصدفة العمياء وتبصيره بقوانين العمل والحركة التي يسير الكون والعالم والتاريخ بموجبها ..

ونريد هنا أن نتوغل أكثر في هذه الميزة (التحريرية) التي تصبغ حضارة الإسلام وتتشابك مع نسيجها الفذ .. فنضع أيدينا على دعوة ملحة لتحرير رغبات الإنسان وأشواقه الجسدية والروحية ، وفتح الطريق أمام دوافعه وحاجاته ومنازعه !

وهذا التوجه يمثل امتدادا ولا ريب لرؤية الإسلام التوازنية الأصلية التي مرت بنا خطوطها العريضة قبل قليل .

إن إحدى الآيات القرآنية تتحدث بصراحة عن (الزينة) ، آمرة بني آدم أن يمارسوها ، وأين ، عند كل مسجد ، حيث يؤدي الإنسان غاية تجربته في التجرد والانسلاخ عن زخرف الحياة الدنيا (يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) تعقب ذلك دعوة صريحة – أيضاً – إلى الأكل والشرب شرط ألا يبلغ ذلك حدّ الإسراف (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين) (٣١) . ثم ما تلبث الآية التي تليها أن تتساءل بصيغة استنكارية واضحة (قل : من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنو في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) (٣٢) .

الفواحش هي المحرمة فقط :

إن المحرم والمرفوض في الإسلام هو الفاحشة ، أيا كان مصدرها الجسد أم الروح ، وليس ثمة رفض أو تحريم أو احتقار موجه ابتداء إلى الجسد بما أنه جسد ، وإلى غرائزه وحاجاته بما أنها غرائز وحاجات تقف في طريق الروح ! ! إننا نقرأ في الآية التي تلي ذلك – وهذا الارتباط بين الآيات الثلاث يحمل مغزاه الواضح – نقرأ (قل : إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) (٣٣) . وما أكثر الآيات التي تستنكر على بعض أتباع الديانات السابقة تحريمهم الكثير من الطيبات التي أحلها الله ، وما أكثر الآيات التي تدعو الإنسان إلى استغلال الطيبات دون إفراط أو تفريط .. وإلاّ لم كان خلق الله سبحانه لها وتفجير خيراتها وتنويعها في أنحاء الأرض ؟ .

---

(٣١) الأعراف ٣١ (٣٢) الأعراف ٣٢ (٣٣) الأعراف ٣٣

(كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل ، إلا ما حرم اسرائيل على نفسه ... (٣٤) .

(قل : هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا .. (٣٥) .

(قل: أرأيتم ما أنزل لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا قل آلله أذن لكم) (٣٦)

(وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا انه لايحب المسرفين (٣٧) .

(لو شاء الله ما أشركنا ولا أباؤنا ولا حرمنا من شيء)(٣٨) .

(لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء، نحن ولا آباؤنا، ولا حرمنا من دونه من شيء) (٣٩) .

التحريم ليس اعتباطاً ولكنه بنص وحكمه :

إن الآيتين الأخيرتين تضعان التحريم الاعتباطي جنباً إلى جنب مع الشرك بالله ، وتنعى على أولئك الذين يمارسون هذا التحريف بشأن الحقائق الكونية وبحق أنفسهم على السواء ، قائلين إن هذا قدر لا مفر لهم منه .. **إن كبت الغرائز هو تزوير للموقف الإنساني في الأرض ،والشرك بالله هو أخطر تزوير ، ومن ثم كانت الممارسة البشرية التي تعتمد التزوير مرفوضة في القرآن مهما صغر حجمها أو كبر .**

بل إننا نجد في الآية التي تقول (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) (٤٠) ، إن كبت بعض جوانب الغريزة أو الحد من إشباعها القائم على ضرورة التنويع يجيء بمثابة (عقاب) وليس – كما قد يتصور البعض – قاعدة من قواعد الدين .. على العكس إن إحدى كبريات البداهات الدينية التي نتعلمها من القرآن الكريم ، أن الحلال هو القاعدة العريضة في ميادين الإشباع الغريزي جميعا :

---

(٣٤) آل عمران ٩٣ (٣٦) يونس ٥٩ (٣٨) الأنعام ١٤٨

(٣٥) الأنعام ١٥٠ (٣٧) الأنعام ١٤١ (٣٩) النحل ٣٥ (٤٠) النساء ١٦٠

طعاما و شرابا وجنسا ومسكناً وملبسا ، وأن التحريم مسألة (استثنائية) محدودة المساحة ، ضيقتها ، حتى أن القرآن ليعتبر توسيعها بشكل اعتباطي كفرا وافتراءا على الله (وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله .. (٤١) ..) ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب : هذا حلال وهذا حرام) (٤٢) ويحذر المؤمنين من هذا السلوك المنحرف المعارض لطبيعة التركيب البشري الذي صاغه الله وعجنه وهو أدرى به (يا أيها الذين آمنو لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم (٤٣) (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ؟) (٤٤) .. ويبين لهم أن إحدى مهام الأنبياء الأساسية . أن يجيئوا – دائماً – لكي يعيدوا الأمور إلى نصابها ويقفوا بمواجهة التزوير .. وهنا في مجال التجربة الغريزية ، يجيئون لكي يفتحوا الطريق العريض أمام متطلباتها مرة أخرى لكي يمضي الإنسان المؤمن إلى أهدافه الروحية دون أن تعيقه الضرورات (ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم)(٤٥) .. (و يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) (٤٦) .

التناقض إذا وجد فهو من ابتداع رجال الدين :

إن نداء يطرحه القرآن لبني آدم في مواضع كثيرة (كلوا مما في الأرض حلالا طيبا) (٤٧) ... يقودنا إلى بديهة أخرى، كثيراً ما غفلنا عنها . لشدة ظهورها ووضوحها ، إن الله سبحانه قد سخرّ لنا الأرض بما ينسجم وتركيبنا الآدمي من اجل أن نواصل مسيرتنا لإعمار العالم وعبادة الله وحده ، وإنه لمن التناقض المكشوف المرفوض في القرآن قطعاً ، أن يركب الإنسان – من قبل خالقه – تركيبا معينا ، وأن تسخرّ الأرض – بإرادة الله – لتلبية متطلبات هذا التركيب ، ثم تجيء الأديان – من عند الله أيضاً – لكي تنصب الحواجز وتضع الأسلاك الشائكة بين متطلبات التركيب الآدمي وبين خيرات الأرض ومنافعها المسخرّة . إن هذا التناقض

---

(٤١) الأنعام ١٤٠ (٤٢) النحل ١١٦ (٤٣) المائدة ٨٧ (٤٤) التحريم ١
(٤٥) آل عمران ٥٠ (٤٦) الأعراف ١٥٧ (٤٧) البقرة ١٦٨

إنما يجيء على أيدي طبقات رجال الدين التي يقوم دورها على التزييف ووضع الحواجز ونصب العراقيل في دروب المؤمنين من أجل أن تضطرهم اضطراراً للجوء إليها وطلب معونتها ، قبل السماح لها بالذهاب إلى الله .. وهناك يبدأ الاستغلال والاستنزاف والأكل بآيات الله ثمناً قليلا .. وقد قطع الإسلام الطريق على بروز طبقات محترفة كهذه ، ومن ثم فلا داعي للحديث أساساً عن تزوير كهذا يقف بمواجهة إرادة الله في تحقيق الانسجام الكامل بين الإنسان والعالم .

وما يقال عن حاجة الإنسان إلى الطعام يمكن أن يقال عن حاجاته الأخرى .. سواء بسواء ولقد وقفنا بعض الشيء عند المسألة الأولى لكي تبدو للقارىء بمثابة معيار موضوعي ، مستمد من القرآن الكريم مباشرة ، يقيس به موقف الإسلام من سائر الحاجات الحيوية للإنسان .

(٦) الإنجاز الحضاري ليس هدفاً نهائياً :

إن الإسلام وهو يحض المؤمنين على التسارع الحضاري عملاً وإنجازاً وإبداعا مسؤولا ، ويعلن رفضه للكسل والقعود والاتكال والعبور السالب للعالم دون تغيير أو إعمار ، لايتجاوز ، انطلاقاً من موقعه الوسطي الشامل ، مسألة في مقابل هذا كله على غاية في الأهمية ، لأنها تعد إحدى الملامح الأساسية الفاصلة بين التجربتين الحضاريتين : الدينية والوضعية ، تلك هي التأكيد الدائم على أن حياة الإنسان في الأرض ،فردا وجماعة ، ليست أبدية دائمة ، إنما هي عابرة موقوفة ، ، وأن معطياته فيها ليست خالدة باقية إنما هي معرضة-في أية لحظة-للدماروالزوال بناء على طبيعة (الحياة الدنيا) القائمة على التغير والتنوع ، والصعود والهبوط ، والميلاد والموت.. وأن الحياة الحقيقية هي الحياة الأخرى التي تتميز بالبقاء والدوام والتي كتب للإنسان فيها الخلود المطلق ،

ومن ثم فإن كل ما يقدمه في هذه الحياة الفانية من أعمال ومنجزات يجب ألا يكون هدفاً بحد ذاته ، كما هو الحال في جل التجارب الوضعية ، إنما وسيلة فحسب لتهيئة الحياة الدنيا لعبادة الله وحده ،وإيجاد المناخ المناسب لممارسة (الاستخلاف) وهكذا يغدو الإنجاز الحضاري في الإسلام وسيلة إلى غاية أكبر ويكتسب في الوقت ذاته (أخلاقية) لانجدها في سائر الحضارات، تصده عن استخدام طاقاته وقدراته في غير الطريق الذي تحتمه هذه الغاية الشريفة البعيدة ، التي لا تقف عند حد ..

إن القرآن الكريم ، من أجل أن نظل دوما في الموقف الوسط الذي يميزنا عن سائر المواقف القلقة ، النسبية، المتأرجحة، يحدثنا في أكثر من موضع عن هذه المسألة ... إلا أنه يجب ألا يخطر ببالنا لحظة أنه يدعونا للزهد أو الفرار ، لأن هذا يمثل تناقضاً أساسياً مع مجمل معطياته ؛ ومع تأكيده في مئات المواضع على ضرورة العمل والإبداع .. إنما هو تقرير للحقيقة النهائية ، وتثبيت للموازين العادلة ، وعرض مقارن لعالمي الفناء والبقاء ، ورؤية للمؤمنين تصدهم عن الإفساد والطغيـــان .

(وما هذه الحياة الدنيا إلا لهوٌ ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون) (٤٨) .

(اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاماً ، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (٤٩).

(واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذوره الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا . المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) (٥٠) .

---

(٤٨) العنكبوت ٦٤ . (٤٩) الحديد ٢٠ (٥٠) الكهف ٤٥ – ٤٦

ويتضح هذا المعنى الأخلاقي الإيجابي للمسألة من خلال العديد من الآيات التي تندد بالغرور البشري الذي ينبثق عن الالتصاق الكامل بالحياة الدنيا ، ويتمخض عن الظلم والإفساد والطغيان

(ذلك بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا ...) (٥١)

(وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) (٥٢) .

(فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) (٥٣) .

(بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غرورا) (٥٤) .

(كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (٥٥) .

إن نسبية التجارب البشرية ، وعدم دوامها ، لا تبدوان فقط بعرضهما على مطلقات الآخرة وخلودها ، إنما من خلال حركة التاريخ البشري كذلك .. الحركة الدائمة التي ترفع وتخفض ، وتقدم وتؤخر ، وتنشيء وتعيد ، بإرادة الله ، ووفق نواميسه في الكون : (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) (٥٦) .. (قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنو ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنو ويمحق الكافرين) (٥٧) .

---

(٥١) الجاثية ٣٥ (٥٢) الأنعام ١٣٠ (٥٣) لقمان ٣٣ (٥٤) فاطر ٤٠

(٥٥) آل عمران ١٨٥ (٥٦) يونس ٢٤ (٥٧) آل عمران ١٣٧ – ١٤١

نحو « تكنولوجيا » إســلامية !

لقد منحنا الإسلام مفتاحين للخلاص ، كلما حزب بنا الأمر وضيقت حركة التاريخ الخناق علينا ، وتجاوزتنا القيادات الأخرى، ووجدنا أنفسنا مدفوعين إلى مناطق العتمة والظلال ..

أول هذين المفتاحين هو (التغيير الذاتي) وثانيهما (الإعداد الذاتي) وبدونهما لن تبدأ حركة صوب التقدم إلى المواقع الأمامية .. أبداً .. ولن يكون التجاوز والانطلاق ..

وإننا لنجد في كلا المفتاحين مساحة واسعة تحتلها مسألة إعادة تشكيل العقل المسلم كشرط أساسي للتحقق بالتغيير الذاتي والإعداد الذاتي على السواء ..

المفتاح الأول « التغيير الذاتي » :

فأما (التغيير الذاتي) فقد طرح القرآن الكريم حده الإيجابي بقوله: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (١) ، وطرح حده السلبي بقوله (ذلك أن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ..) (٢) ..

وهو تغيير يمتد إلى كافة المساحات وسائر المكونات النفسية الأساسية: العقلية والروحية والجسدية ، وكل العلاقات والبنى الداخلية مع الذات ومع الآخرين، والتي تمكن الإنسان المسلم والجماعة المسلمة من مواجهة حركة التاريخ ..

إن تأكيد الإسلام على قانون (التغيير) يعني أنه يمنح الإرادة البشرية المؤمنة فرصتها في صياغة المصير ، في التشبث به أو استعادته إذا ما أفلت من بين يديها .. ومن ثم فإنه ما أن تتهيأ هذه الإرادة للعمل عن طريق الشحذ النفسي والاستعداد الروحي والعقلي والأخلاقي والجسدي -كذلك- حتى تكون قادرة على مواجهة

---

(١) الرعـد ١١ (٢) الأنفـال ٥٣

التحديات من أي نوع كانت وبأى درجة جاءت ، فتعجنها وتصوغها من جديد لصالح الإنسان . وهكذا يعود الإنسان – في المنظور الإسلامي – لينتصر على التحديات ولسيتعيد قدرته الأبدية على التجدّد والتطور والإبداع ..

وليس ثمة ما يقف في طريق امتلاك ناصية التغيير الذاتي كالرؤية التجزيئية أو الموقف النصفي !! .

لقد فهم كثير من المسلمين عملية التغيير فهماً خاطئاً ، وتصوروها مجرد تجديد للتوثب الروحي ، أو إعادة التزام بحشد من القيم الخلقية ، أو السلوكية التي دعا إليها الإسلام ..

وسنقع في الخطأ نفسه لو قلنا بأن الحلّ يكمن (فقط) في إعادة تشكيل العقل المسلم ..

إن التغيير الذاتي عملية شاملة تغطي الطاقات البشرية كافة : عقلية وروحية وأخلاقية وسلوكية وجسدية .. وأي تجزيء في الرؤية ، أو الموقف ، يقتل المحاولة في المهد .. ولكننا بتأكيدنا على التشكل أو التغيير العقلي ، إنما نعتمد ضرورة منهجية تضع في الاعتبار ، دوماً ، سلما للأولويات فتبدأ بالأهم فالمهم فالأقل أهمية .. ولما كان التركيز في عملية التغيير قد أنصبّ في معظمه على الجوانب الأخرى ، بعيداً عن العقل ، ولما كانت عملية إعادة التشكل العقلي ضرورة قصوى وشرط حاسم لاستكمال عملية التغيير ، كان وقوفنا عندها في هذا البحث

المفتاح الثاني « الإعداد الذاتي » :

مرة أخرى .. فإن التغيير الذاتي بمنظوره الشامل ، وبوضعيته المركبة وجهده المتعدد .. هو أحد مفتاحين لا بدّ منهما للتحقق بالقوة والفاعلية والخلاص .. فأما المفتاح الثاني فهو (الإعداد الذاتي) ..

وإذا كان (التغيير) ينصب على الذات المسلمة في إطارها الفردي بالدرجة الأولى ، لكي ينسحب – من ثم – على الجماعة فيمكن لها في الأرض ..

فإن (الإعداد) ينصبّ على الجماعة المسلمة بالدرجة الأولى لكي يحمي – من ثم – الذات المؤمنة من الحصار والتضييق والضياع في العالم ..

والقرآن الكريم يقولها صراحة ، وبالتعبير نفسه (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم ...) (٣) .

ولن يتحقق الإعداد المطلوب إن لم تستجش طاقات الإنسان المسلم كافة ، ويعاد تشكيل عقله ، كما أراد له الإسلام أن يكون ، ليتمكن من أداء دوره في هذه المهمة الكبيرة وللوصول إلى شواطىء الأمن واليقين ، والتحقيق بسياج القوة التي ترهب الأعداء وتمكن للأمة الإسلامية في الأرض .

العلم الحديث أداة حيادية :

والعلم الحديث ليس مارداً كافراً لكي نتبرأ منه وندعو لحربه ، ولكنه أداة حيادية يمكن أن نوظفها لخدمة ديننا وتعزيز عقيدتنا ..

والعلم الحديث ليس ابن الحضارة الغربية وحدها ، لكي نتردد في احتضانه وتنشئته .. ولكنه تمخض أبدي لتراكم في الخبرة البشرية وحضارات شتى أسهمت بها معظم شعوب الأرض الحية .. وكان لحضارة الإسلام نصيب وافر في وضع دعائمه ، و تصميم مناهجه ، وطرح الكثير من معطياته ..

وقد تكلمنا عن موقف الإسلام من العلم الحديث في غير هذا المكان (٤) ، ولن يتسع المجال هنا لطرح ما قلناه هناك ، والنتيجة التي يطمئن إليها الإنسان ، إزاء المسألة ، وبإيجاز شديد ، أن معطيات القرآن الكريم قد امتدت لكي تشمل أطراف

---

(٣) الأنفال ٦٠

(٤) انظر كتاب (مدخل إلى موقف القرآن من العلم) قيد النشر

العلم جميعاً ، فتعالجها وتنير لها الطريق ، وتبرمج لمناهجها ، وتقدم طرفا من كشوفها ونتائجها : الفلسفة (أو الأهداف) ، والمنهج ، والحقائق ، والتطبيقات ..

إننا نجد العديد من المبادىء الأساسية للحياة الإسلامية التي تحدثنا عن بعض جوانبها ، من مثل الاستخلاف والتسخير والتوازن والارتباط المحتوم بين معجزة الخلق ووجود الخالق .. لايمكن تنفيذها وتعزيزها ، وتعميق معطياتها في العالم دون اعتماد العلم أداة لتحقيق هذه الأهداف.. كأسلوب أو برنامج عمل لخدمة التصور الإسلامي الذي يقوم على هذه الأسس .

ونجد القرآن الكريم يطرح لأول مرة منهجاً حسياً تجريبيا للنشاط المعرفي، هو نفسه الذي يعتمده اليوم العلم الحديث ..

هذا إلى أن القرآن الكريم طرح حشدا من الحقائق والكشوف العلمية في ميادين شتى وبخاصة الفلك والطبيعة والجغرافية والطب والنفس .. إلى آخره جاءت معطيات العلم الحديث لكي تؤكدها وتزيدها إيضاحاً .. مصداقا لقوله تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ..) (٥) ولقوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟) (٦) .

عصر التكنولوجيا الإسلامية :

أما التطبيقات (التقنية) التي تتمخض في نهاية الأمر عن منهج العلم وحقائقه النظرية الصرفة .. فإن للقرآن الكريم كلمته فيها هي الأخرى ، وقد يبدو الأمر غريباً للوهلة الأولى .. إذ ماعلاقة كتاب الله (بالتكنولوجيا) وهي نتاج يتميز بالجدة والحداثة لمعطيات العلم في شوط متأخر من مسيرته الطويلة ؟ .

---

(٥) يونس ٣٩ (٦) فصلت ٥٣

ولكن الدهشة تزول إذا عرفنا جيداً أن القرآن الكريم قالها صراحة ، وفي أكثر من موضع .. وأنها تواترت فيه حتى بلغت مرتبة اليقين .. ولكن أين الآذان التي تسمع ، والعيون التي تبصر ، والعقول التي تتدبر وتفكر وترى ؟ .

وإذ كان هذا الجانب من العلم الحديث يرتبط أشد الارتباط بما نحن بصدده من التحقق الإسلامي بالقوة ، ومن الدعوة إلى قيام عصر (التكنولوجيا) الإسلامية ، وتشكيل المجتمع الإسلامي التقني . فسوف نقف عنده بعض الشيء في ختام رحلتنا هذه مع (إعادة تشكيل العقل المسلم) ، رغم أننا كنا قد وقفنا عنده بمزيد من التفاصيل في أكثر من كتاب (٧) .

نموذجان من عباد الله المصطفين :

إننا نطالع في القرآن الكريم هذه الآيات (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوّبي معه والطير وألنا له الحديد . أن عمل سابغات وقدر في السرد ، واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير . ولسليمان الريح غدوّها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه – بإذن ربه – ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب ، وقدور راسيات، اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور) (٨) . وفي مقطع آخر نجده في سورة (ص) نقرأ تأكيدا واستكمالاً للموقف (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق . والطير محشورة كل له أوّاب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) (٩) ، ثم تعود الآيات لكي تتحدث عن سليمان كرة أخرى (قال : رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب . والشياطين كل بناء

---

(٧) انظر (التفسير الإسلامي للتاريخ) و(مدخل إلى موقف القرآن من العلم) و(آفاق قرآنية) .

(٨) سبأ ١٠ – ١٣ (٩) ص ١٧ – ٢٠

وغواص . وآخرين مقرنين في الأصفاد . هذا عطاؤنا ! فامنن أو امسك بغير حساب) (١٠) .

إننا هنا نلتقي باثنين من عباد الله المصطفين ، داود وسليمان عليهما السلام ،وقد سخرّت لهما قوى الطبيعة الهائلة والطاقات الغيبية التي لايحدّها جدار زماني أو حاجز مكاني ، سخرت جميعاً لكي تعمل تحت إمرة الإنسان ، المؤمن ، المسؤول : الجياد ، الطير ، الحديد ، الريح ، القطر (النفط) .. في عدد مشار إليه من مساحات العمل (التقني) التطبيقي : صناعة وعمراناً وبناءا وفنونا .. وتثير عجبنا في ميدان هذا النشاط تلك الإشارات الواضحة إلى الحديد والوقود ، اللذين قد تبين لنا في قرننا العشرين هذا ، كم هما ضروريان أساسيان للحضارة المعاصرة ، ولكل حضارة تريد أن تعمر وتصنع وتبني وتتفنن وتطبق .. ويثير عجبنا كذلك أن الله سبحانه لم يمنح الحديد فحسب لداود ولكنه يعلمه كيف يلينه ، فبدون هذا لن تكون ثمة فائدة (صناعية) لهذا الخام الخطير ..

إننا هنا نلتقي بالإنسان المؤمن ، بل بالنبي ، الذي يبلغ من فهمه عن الله وشكره لنعمائه أن يمنحه خالقه هذا القدر الكبير من القوى المذخورة ، ويكشف له عن هذه الطاقات الطبيعية الهائلة من أجل أن يبني ويعمر ويتفنن ويبدع ويبتكر ويتقدم بالحياة صعدا . على طريق الخلافة المسؤولة ، المؤمنة ، الراشدة ، التي لا ينحرف بها هذا النعيم الكبير عن التزام الموقع الصحيح في العلاقة المطلوبة بين الله والإنسان .

دلالات وإشارات منهجية في القرآن :

وفي سورة (الحديد) نقرأ هذه الآية: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوي عزيز) . (١١) .

---

(١٠) ص ٣٥ - ٣٩ (١١) الحديد ٢٥

سورة الحديد، هل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض من تسمية سورة كاملة باسم خام من أهم وأخطر خاماتها ؟ هل ثمة أكثر إقناعاً لنزعة التحضر والإبداع والبناء والتطبيق ، التي جاء الإسلام لكي يجعلها جزءاً أساسياً من أخلاقيات الإيمان وسلوكيته في قلب العالم ، من هذه الآية التي تعرض خام الحديد كنعمة كبيرة أنزلها الله لعباده ، وتعرض معها المسألة في طرفيها اللذين يتمخضان دوماً عن الحديد : (البأس الشديد) متمثلاً باستخدام الحديد كأساس للتسلح والإعداد العسكري ، و(المنافع) التقنية التي يمكن أن يحظى بها الإنسان من هذه المادة الخام في كافة مجالات نشاطه وبنائه (السلمي) ؟ وهل ثمة حاجة للتأكيد على الأهمية المتزايدة للحديد بمرور الزمن ، في مسائل السلم والحرب ، وأنه غدا في عصرنا الراهن هذا وسيلة من أهم الوسائل في ميادين القوى الدولية سلماً وحرباً إن الدولة المعاصرة التي تملك خام الحديد تستطيع أن (ترهب) أعداءها بما يتيحه لها هذا الخام من مقدرة على التسلح الثقيل ، وتستطيع – أيضاً – أن تخطو خطوات تقنية واسعة لكي تقف في مصاف الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لصناعاتها وغناها ؟ ! .

إن كل موقف قرآني يشكل – ولاريب – وحده عضوية لا تنفصم عراها ، يمكن أن نحظى بأبعادها وصيغتها النهائية بمجرد أن نجمع إلى بعض كل الآيات التي تغذي هذا (الموقف) وتشكل مادته الحية : في الاقتصاد ، في الاجتماع ، في السياسة ، في التشريع ، في النفس ، في العلاقات الدولية ، في العقائد ، في الآداب ، في المعاملات .. إلى آخره .. في كل قطاع من هذه القطاعات نلتقي بعدد من المواقف المتكاملة المحبكة التي تصنعها وتصورها وتمنحها صيغتها النهائية مجموعة من الآيات والمقاطع المنبثة في ثنايا القرآن .

والآن ونحن نتكلم عن الحديد نلتقي بسورة كاملة بهذا الاسم ، ونتذكر في الوقت نفسه الآيات التي مرت بنا قبل قليل من سورة (سبأ) تلك التي تذكر نعمة الله على داود بتسييل الحديد له ، أو تعليمه كيف يسيل الحديد !! ، وهي بصدد الحديث عن الإعمار والبناء والتصنيع ، ونتذكر أيضاً (ذا القرنين) وهو ينادي الجماعة المضطهدة لكي يحميها من الغزاه (آتوني زبر الحديد ، حتى إذا ساوى بين الصدفين قال : انفخوا ، حتى إذا جعله ناراً قال : آتوني افرغ عليه قطرا ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا) (١٢) ، وتفرض آية أخرى نفسها لإتمام المسألة ، تلك التي تنادي الجماعة الإسلامية : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم . وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) (١٣) .. لكي ما يلبث الإنسان المسلم والجماعة المسلمة أن يعتمدا الحديد ، هذا الخام الخطير المذكور في عدد من المواضع والذي سميت إحدى السور باسمه ، مادة أساسية لإعداد (القوة) وإرهاب الأعداء في عالم يضيع فيه ويداس من لا يملك القدرة على إرهاب أعدائه ، هذه القدرة التي ترتبط دوماً بمدى التقدم التقني (التكنولوجي) ارتباطا عضويا ، وتسير معه في نفس المنحنيات التي يجتازها في أغلب الأحيان

إعمار الأرض وإقامة العدل والحق وحمايتهما :

إننا يجب أن نلتفت – هنا – إلى ذلك التداخل والارتباط الصميمين ، في آية الحديد ، بين إرسال الرسل وإنزال الكتب معهم وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس ، وبين انزال الحديد الذي يحمل في طياته (البأس) ، ثم التأكيد على أن هذا كله إنما يجيء لكي يعلم الله (من ينصره ورسله بالغيب) و (ان الله قوي عزيز) .. إنها العقيدة التي تعرف كيف تشد الإنسان إلى أعماق الأرض وتدفعه إلى التنقيب فيها من أجل إعمارها وحمايتها .. وان المسلم لن تحميه وتنصره إلا يده

---

(١٢) الكهف ٩٦ – ٩٧ (١٣) الأنفال ٦٠

المؤمنة التي تعرف كيف تبحث عن الحديد وتصوغه من أجل الحماية والتقدم والنصر .. وأنه – بمجرد أن يتخلى عن موقفه الفعال هذا ، الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحركة الجهاد الدائمة ، ويختار – بدلاً من ذلك – مواقع الفرار والانتظار الاتكالي لمعونة الله ، فإنه يتناقض مع نفسه وعقيدته وسوف يهزم لا محال مادام قد أشاح عن هذا النداء القرآني الذي يكاد يصرخ بأعلى نبرة أنه بدون الاعتماد الواعي ، المسؤول الخبير ، على مصادر القوة والبأس فلن يكون هنالك (نصر) ولا (تقدم) ولا (حماية) للموازين والقيم العادلة التي جاء الدين لتنفيذها في الأرض ، حتى ولو حبس المؤمنون أنفسهم في المساجد السنين الطوال ، يبكون ويتضرعون .

إن الدعوة لقيام مجتمع إسلامي (تكنولوجي) ، وبدء عصر (تكنولوجيا إسلامية) ، إنما هو استمرار طبيعي لموقف الإسلام المفتوح من معطيات العلم في آفاقه كافة ، واستكمالاً للدعوة إلى إعادة تشكيل العقل الإسلامي من أجل أن يكون أكثر قدرة على استيعاب المتغيرات وتطوير الحياة الإسلامية وحمايتها – في الوقت نفسه – من التفكك والعدوان .

إن (التكنولوجيا الإسلامية) ، التي ترتبط – بطبيعة الحال – بخلفيتها الإيمانية ، تعدّ (ضرورة) ملحة ليس فقط على مستوى الجماعة الإسلامية نفسها ولكن على مستوى البشرية عامة .. لأنها ستعرف كيف تتحرك ، وتنضبط ، على هدى القيم الدينية والإنسانية القادمة من عندالله ، فتكون حقاً في خدمة (الإنسان) الذي عانى الكثير من تكنولوجيا الكفر ، والعرقية ، والأنانية ، والعصيان ..

إن على العقل المسلم الجديد أن يأخذ بتلابيب الطاقة التي كشف عنها النقاب ، والقوانين العلمية التي تحيل الطاقة إلى حركة وفعل وتطبيق وإبداع .. أن يمسك برقبة الزمن فيضيفه إلى المادة لتحقيق اللحاق بمسيرة الخصم ، والسبق عليه ، مادامت قيم هذا الدين تؤكد بالحاح على فكرة الزمن وعلى أن المؤمن الحق هو الذي يعرف كيف (يسارع) وكيف (يسبق) . !!

مسؤوليتنا عن الهزائم :

وسواء شئنا أم ابينا ، فنحن – أولاً وأخيراً – مسؤولون عن هزائمنا العقيدية ، وانحطاطنا السياسي ، وتخلفنا الحضاري .. ومرفوضة كل محاولة تسعى إلى اتخاذ ممارسات الأمم والجماعات الأخرى مشجباً لتعليق هذه الهزائم وتبريرها .. ولن ينقذنا إلا فعلنا الخاص ، ولن يعيدنا إلى موقعنا المتقدم إلاّ تحملنا الكامل لمسؤوليتنا ..

إن القرآن الكريم يؤكد في أكثر من موضع على أن أية أمة ، مؤمنة كانت أم غير مؤمنة ، إنما تحمل مسؤوليتها كاملة إزاء نفسها ، أمام الله وأمام التاريخ ، ولن تحمل أبداً تبعة أمة أخرى إلاّ بالقدر الذي تفرضه عليها مسؤوليتها ذاتها تجاه الإنسان والعـــالم .

فكما أنه على المستوى الفردي يؤكد الإسلام مسؤولية الإنسان عن أفعاله فحسب ، فكذلك الحال على مستوى الأمم والجماعات(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو اخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ..) (١٤) .. (تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولاتسألون عما كانوا يعملون) (١٥) .. ومن قبل تساءل المسلمون الذين انهزموا في معركة (أحد) عن سبب هزيمتهم غير المتوقعة تلك .. فأجابتهم كلمات الله (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أني هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم) (١٦) .

إعادة تشكيل العقل المسلم :

والمفاتيح (عندنا) أولاً وأخيراً ، فإن لم نصل إلى اليوم الذي نبني فيه (مختبراتنا) ونشغلها بعقولنا .. ونصنع سلاحنا ونستخدمه بأيدينا .. إن لم نعد تشكيل عقولنا

---

(١٤) البقـرة ٢٨٦ (١٥) البقـرة ١٣٤ ، ١٤١ (١٦) آل عمران ١٦٥

لكي (تعمل) كما أراد لها الإسلام أن تعمل .. فلن تكون لنا خارطة أو مكان في هذا العالم ، ولن يكون بمقدور ألف سنه أخرى من التعبد والذكر وحده أن تصنع المعجزة .

ذلك هو التحدّي الحقيقي الذي يقف قبالتنا صباح مساء ..

وهذا هو طريق الاستجابة المرسوم في كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام .. هذا هو الجواب ..

فهرس الكتاب

* * *

رقم الإيداع ٥٠٢٢ / ١٩٨٣

دار النصر للطباعة الإسلامية

٢ شارع نشاطي - شبرا مصر